الدراسات المؤسسة لعلم الاجتماع د/ حمود سعيدة
اعمال موجهة فوج 04- 02
دراسة الإنتحار لإميل دور كايم و تموقع علم الاجتماع بين الكليانية والفردانية

لذلك فقد سعى أهم السوسيولوجيين من أبرزهم أميل دوركايم (1957-1858) إلى دراسة الحياة الاجتماعية في أوروبا، وهو في الأصل خريج الفلسفة ويعتبر مؤسس المدرسة الفرنسية في السوسيولوجيا ولقد بدأ دوركايم عمله العلمي بتزويد السوسيولوجيا لمنهجية خاصة لدراسة الوسائل الاجتماعية متأثرا دور كايم بالمدرسة الوضعية الفرنسية التي أسسها سان سيمون وبتعيين مجال علم الاجتماع في كتابه "قواعد المنهج السوسيولوجي" ، الذي أكد فيه على أن الوقائع الاجتماعية ينبغي أن تعالج كأشياء أي أن السوسيولوجي وعالم الاجتماع ينبغي عليه المحافظة على المسافة التي بينه وبين موضوع دراسته "يجب على السوسيولوجي أن يتسلح منهجيا حتى يتجنب البديهيات الكاذبة ويحدد مجددا المشكلة التي تطرح عليه انطلاقا من انشغالاته أي انتاج المعارف، "لقد حذر دور كايم من قبل من هذه المخاطر ونادي باللجوء إلى جملة قواعد هدفها ضمان القطيعة مع الأفكار المسبقة ودافع على الخصوص على استعمال الإحصائيات'."

أي أن علم الاجتماع علم يهتم بالدراسة التقريرية الموضوعية فاستعمال الإحصائيات ظهرت الضرورة إليها في دراسة عن الانتحار وسماه "النسبة الاجتماعية للانتحار معبرا عنها " العلاقة بين العدد الإجمالي للموتى الإداريا والسكان من كل عمر ومن كل جنس".

مما سمح له استعمال الإحصائيات بمعاينة انتظام لنسبة الانتحار على مرحلة طويلة وفهم انطلاقا من الخصائص الاجتماعية للمنتحرين بالتركيز على العوامل الاجتماعية رافضا المقاربات السيكولوجية أي أن السياق الاجتماعي يمارس دور قابلا للقياس في تحديد نسب الانتحار.

لقد درس دوركايم حالات الانتحار على أساس علم النفس المرضي محاولا تجنب كل تغيير خارج عن الإجتماعي، فهو يرفض أن تكون الظواهر الاجتماعية معبرة عن طبيعة فردية بحيث يقول "لقد سبق أن بينا مما لا شك فيه أن الظواهر الاجتماعية تنشأ عن تركيب الظواهر النفسية على نحو خاص).

أي أنه من المستحيل أن توجد ظاهرة اجتماعية ما إلا بوجود أفراد، وحينئذ يجب علينا أن نبحث عن الأسباب المباشرة التي تؤدي إلى وجود الظواهر الاجتماعية عن طريق دراستنا لطبيعة تلك الشخصية النفسية الجديدة .

ومن خلال الإحصائيات وتحليلها استخلص إلى طرح تنسيق للانتحار:

أ-الانتحار الأناني: هو مظهر لاندماج اجتماعي ضعيف جدا أي إن الفرد ذو طبيعة فردانية مفرطة فلقد وجد أن معدل الانتحار مرتفع نسبيا لدى بروتستانت منه لدى الكاثوليك ثم لدى اليهود وفسرها دوركايم بالنزعة الفردية الخاصة بكل دين فهذه النزعة أي الفردية هي ضعيفة لدى اليهود حيث أن الانتماء للجماعة هو قوي جدا عكس البروتستانت هم على الأقل حضور في الحياة الاجتماعية وبهذا فهو خلص إلى أن الدين يقي من ظاهرة الانتحار كونها تنادي بالانتماء والاندماج الاجتماعي للأفراد وعموما يعزز علاقاتهم الاجتماعية.

فأهم نقطة أكد عليها من حيث القطيعة مع الأفكار القيمة أو الأفكار المسبقة هي الإحصائيات فوجود دلالات إحصائية يدحض كل الأفكار والتصورات حول أي ظاهرة اجتماعية.

ب-الانتحار الغيري: يقول دوركايم "عندما ينفصل الإنسان عن المجتمع يعيل نفسه بسهولة كما يعيل نفسه أيضا عندما يكون مندمجا بقوة.

ج-الإنتحار اللامعياري والفوضوي: هذا الانتحار يتم بطريقة شاذة وهو الأكثر شيوعا في المجتمعات الحديثة، ويحدث عندما تصادف المجتمع تحولات عميقة ووجد أن الانتحار يرتفع أثناء مراحل التحول الاقتصادي، سواءا بتغيرات الأزمة أو في فترات النمو الاقتصادي الفردي فهو له ارتباط وثيق بتأثير المجتمع على الفرد وهنا يزيد التأثير على أن علم النفس هو الحكم الوحيد على الظواهر الاجتماعية فكلما كانت الخاصية الجوهرية التي يمتاز فيها هذه الظواهر، تنحصر في القيام بضغط خارجي على ضمائر الأفراد كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر، وبناء على ذلك فليس علم اجتماع يكسبه لعلم النفس وذلك لأن مقدرة الظواهر على الغير دليل على أنها تعبر عن طبيعة أخرى لطبيعتها الفردية ".

فدوركايم يرفض أن تكون الظواهر الاجتماعية معبرة عن طبيعة وخاصية فردية ونفسية ووضع بدلا من ذلك مفهوما موازيا لها وهي العقل الجمعي "لقد سبق وأن بينا أنه مما لا شك فيه أن الظواهر الاجتماعية تنشأ عن التركيب الظواهر النفسية على نحو خاص"

فالباحث الاجتماعي ليس كعالم النفس في تعامله مع الظواهر الاجتماعية. لأن لها طبيعة خاصة بها، لا يجوز لعالم الاجتماع و وبحال ما لأن تستعير من علم النفس بعض قضاياه لكي يطبقها دون تحرير، على الظواهر الاجتماعية بل لا بد له من دراسة التفكير الاجتماعي برمته أي شكلا وموضوعا في ذاته ولذاته، ولابد عليه أن يشعر خلال ذلك بما ينطوي عليه هذا التفكير عن صفات خاصة .

فلفهم ظاهرة اجتماعية يجب الإنطلاق من المجتمع إلى تحليل ودراسة الضغط الذي يمارسه هذا الأخير على سلوك الأفراد،فالفرد حسب دوركايم نادرا ما يكون بمقدوره فهم الدوافع الحقيقية لأفعاله بحيث تبدو له وكأنها طبيعية.و يبرز ذلك من خلال دراسته على الانتحار "اذا أخذنا بالأسباب التي عرضها دور كايم ، يمكن القول ان الوقائع التي تؤكد الأطروحة العامة لعلم الاجتماع الموضوعي والتي بينت أن الانتحار والتي هي أفعال فردية بارزة محكومة بأسباب اجتماعية ، وقد يكون موضوع علم اجتماع تقديم البراهين على أن سلوكات كهذه ترتبط بحتميات اجتماعية ، و قد تكون مهمة علم اجتماع إحصاء كل أثار البنيات الاجتماعية "

فمن خلال المجتمع ركز دور كايم على عنصرين أساسيين مسألة التماسك الاجتماعي وثغراته في المجتمع عبر تحليله للانحراف عبر مثال الجريمة، ولقد عرفها بوصفها فعلا يسيء لبعض المشاعر الجمعية الموهوبة، فلقد حللها بواقعة اجتماعية حالها حال الانتحار.

ولقد تساءل في دراسته حول خصوصيات السلوكات المنحرفة داخل المجتمع الصناعي وربط بين الأشكال الجديدة للانحراف والانتقال إلى التضامن الآلي.

فبالنسبة لدوركايم تزامن تقسم العمل مع زيادة النزعة الفردية لأن الضمير الجمعي يوجد بالمجتمعات التقليدية مما أدى إلى ضعف التنظيم الاجتماعي كما حدث في فرنسا مع نهاية القرن 19 ،و عبر عنه بمفهوم اللامعيارية الفوضوية Anomie أي غياب المعايير الاجتماعية في سلوك الأفراد بحيث تنامت الفوضوية مع عملية التقسيم الاجتماعي مما أدى إلى زيادة النزعة الفردية.

فأكبر أثر سلبي خطير لعملية التقسيم العمل الاجتماعي يكمن في غياب العلاقات وبالتالي فالتضامن في مختلف المستويات التزامنية للتنظيم، مما يؤدي إلى الانعزال الاجتماعي لذلك عقد دور كايم آمالا كبيرة على المجموعات المهنية التي تنظم الحياة الاقتصادية لأجل ضمان وظيفة التنظيم الاجتماعي ولقد استخدم هذا المفهوم الفوضوية السوسيولوجي روبرت ميرتون في تحليله للانحراف إلا أن هذا المفهوم حسب النقاد تعرض إلى تشوية

للمعنى " أن ميزة نمذجة ميرتون تكمن في إشارتها إلى أن الانحراف سلوك اجتماعي لأنه وفق للموقع الذي يحيكه الفرد داخل البنية الاجتماعية، هنا تأخذ الفوضوية معنى مختلف جذريا عن معناه عند دوركايم، فالتأكيد لا ينصب حول غياب القواعد القادرة على تحديد الأهداف المشروعة للفرد انما بأكثر عن عدم وجود تطابق بين الموارد التي يملكها الفرد وأهدافه التي تحركه لاستخدام وسائل غير قانونية".

وفي نفس الإطار ضمن دراسته عن الانتحار فإن دوركايم يعتبر أول من أوضح التفرقة بين النماذج الآلية والنماذج الإحصائية ،فيرى البعض أن دوركايم هو الذي يعود إليه الفضل في ذلك حيث كان قد تصور هذا التمييز بين هذين النوعين المختلفين من النماذج حينما يتضح في كتابيه "تقييم العمل" و "الإنتحار.

ويقصد بها إذا أردنا مثلا أن تناول ظاهرة كالإنتحار فإنه يمكن أن ندرسها على مستويين مختلفين، فأولا يمكن عن طريق دراسة المواقف الفردية أن نشيد ما يمكن أن نسميه بالنماذج الآلية للانتحار. وفي هذه النماذج نضع باعتبارنا شخصية المنتحر وتاريخ حياته، علاوة على الجماعات الأولية التي نشأ فيها، كما يمكن على عكس ذلك أن نبحث على نماذج ذات طبيعة إحصائية عن طريق تسجيل تعدد حالات الانتحار في فترة معينة من الزمن في مجتمع معين بالذات أو في عدد من المجتمعات، وفي مختلف الجماعات الأولية، ولهذا فإن هذه المستويات المختلفة إنما تضفي على الدراسات السنوية للانتحار قيمة إستراتيجية لأنه يمكننا من إجراء مقارنة بينما من الزوايا التالية:

- بالنسبة لأنماط مختلفة من الانتحار.
- بالنسبة لمجتمعات مختلفة.
- بالنسبة لأنماط مختلفة من الظواهر الاجتماعية.

وهكذا فإن المشاعر الفردية هي التي تحدد كل انتحار ، لكن المنهج السوسيولوجي وحده و من خلال اعتبار الانتحار كشيء يمكن أن يتيح تفهم طبيعته الحقيقية ، أي الخواء الوجداني و العزلة الأخلاقية الناجمين على خلل في الاندماج الاجتماعي